على هامش الحوادث والأنباء

ماذا رأينا

فى هذه الحرب الدامية ؟ . . .

بقلم الأستاذ عيسى متولى

خمس سنوات والعالم يصلى نارا حامية، أججتها حرب ضروس لم يشهد التاريخ البشرى أشد منها هولا وقسوة، ولا أروع منها نضالا وعنفا . . . فلم تسلم من شرها المستطير أمة من الأمم ، ولم ينج من شررها المتطاير شعب من الشعوب ! . . .

ولقد رأينا فى هـذه الحرب صورا كثيرة وألوانا شتى ، فشاهدنا صراعا عنيفا بين المبادئ السياسية المختلفة، فتصارعت الديموقراطية والشيوعية ضد الدكتاتورية والفاشستية ، فكان هذا الصراع العنيف بمثابة اختبار لأصلح المبادئ وأحقها بالبقاء .

وشاهدنا مصرع الأمم المستهترة ، ومصير الشعوب التى صرفتها الملذات عن نواحى الجد ، وتفرقت كلمة زعمائها وقادتها ، ولعبت الخيانة دورا فى تاريخها ، وتداعت صروح الأخلاق والفضيلة بمعاول الهدم والتقويض ، فانهارت الأمة بأسرها . وانهار بجدها التليد بين عشية وضحاها .

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وشاهدنا معجزات العلم الحديث ، وما تمخضت عنه أذهان العلماء والمفكرين فى القرن العشرين من مخترعات يكاد العقل لا يصدقها ، فقد توصل العلماء إلى اختراع أقراص صغيرة يزدردها الجندى فى الميدان فتغذيه غذاء كاملا يساعده على مواصلة القتال ، وشاهدنا المعدات الحربية العجيبة ، كالطائرات اللاسكية التى تستعمل دون حاجة إلى طيارين ، والقنابل التى تنفجر فى وقت معين ، والغواصات ولاقطات الألغام والطوربيدات البشرية والمناطيد والمظلات والأسلحة السرية التى نقلت إلينا البرقيات بعض أنبائها ، ولو أن تفكير هؤلاء العلماء المجتهدين اتجه إلى نواحى الخير لاستفادت البشرية من تلك المخترعات الشىء الكثير ، فلو أنهم وجهوا هـذه الجهود الجبارة نحو اختراع يقضى على جراثيم الأمراض والأوبئة التى تفتك بالبشر ، أو يساعد على استئصال الأدواء التى يذهب ضحيتها الآلاف فى كل عام ، أقول لو أن هـذه الجهود وجهت وجهة الخير لخدم العلماء الإنسانية أجل الخدمات ، ولأدوا رسالة العلم على وجهها الأكمل .

وهناك من يقول إن العلم جنى على البشرية بما توصل إليه العلماء من مبتكرات علمية استعانوا بها فى هذه الحرب ، والواقع أننا نظلم العلم حين نحمله تبعة هذه الشرور ، ونتسبب

إليه تلك التهم ، فالعلم لم يجن على البشرية كما يزعمون ، ولكن البشر أنفسهم استغلوا العلم فى نواحى الشر ، وأساءوا العمل بما هداهم إليه العلم ، فاخترعوا معدات التخريب والتدمير فلم يظلم العلم البشرية ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون .

وكل شىء لا يحسن استعماله يستحيل خطره ، فمخترع لقاطرة مثلا لم يخترعها لتدهم الناس وتقضى على حياتهم ، إنما كان هدفه حين فكر فى اختراعها خدمة المجتمع بتقريب المسافات وتيسير سبل النقل ، فإذا أحسن القائد قيادة القاطرة أمكنه الاستفادة بها ، وإذا لم يحسن استعمالها كانت نقمة عليه وعلى من معه وعلى كل من يصادفه .

وانفقت الأمم المتحاربة الملايين من الجنيهات فى سبيل التسلح . ولو أن هذه المبالغ الطائلة أنفقت فى أبواب الخير لما وجدنا على وجه الأرض فقيرا يقاسى شظف العيش ، ولا مسكينا يتضور جوعا ، يعانى مرارة الفاقة والحرمان ... ..

* * *

وشاهدنا خدع المتحاربين وتفننهم فى اقتناص الفرص للإيقاع بخصومهم فى المآزق المحرجة استنفادا لقواهم ، ورأينا معاهدات تنقض ولما يجف مدادها ، ووثائق يلقى بها عرض الحائط ولا يقام لها وزن ، فكانت العلبة للقوة وحدها ، وحق لنا أن نفخر نحن المصريين باحترامنا للعهود والمواثيق وتقديسنا لها ، فقد قامت مصر بتعهداتها كاملة غير منقوصة ، فكانت موضع إعجاب الأمم جميعا ، وشهد بذلك أقطاب السياسة والزعماء ، فكان موقفها موقف الحليفة الوفية المخلصة .

ورأينا أمما باسلة تذود عن حريتها واستقلالها ذود المستميت عن حياضه ، وتؤثر الموت على تسليم شبر واحد من أرضها ، فاشتد القتال فى شوارعها بل وفى بيوتها ، لم يضعفها الجهاد ، ولم يفت فى عضدها الوهن ، فصمدت أمام القوة تقابل النار بالنار ، والقوة بالقوة ، لا تتزحزح ولا تتزلزل ، بل تزيدها الخطوب حماسا وقوة ، بينما رأينا أمما أخرى رضيت بالذلة والاستعباد ، فعمدت إلى التسليم والخنوع للقوة . وخرت مستسلمة ، خاضعة ، ذليلة ... ..

وأى موت أحرى من هذا الانهزام ؟ ! ...

وإذا لم يكن من الموت بد فمن العار أن تموت جبانا

ولعبت الجاسوسية فى هذه الحرب دورا خطيرا ، واستخدم الأثير فى إرسال واستقبال الإشارات والأوامر العسكرية ، فكان خادما أمينا للمتحاربين .

وعقدت الدول المؤتمرات الكثيرة لتنظيم العالم بعد الحرب سياسيا واقتصاديا واجتماعيا فعقد مؤتمر سياسى فى واشنطن ، وعقد مؤتمر الأغذية فى أمريكا ، وعقد المؤتمر المالى

فى القاهرة ، وعقد مؤتمر النقد فى أمريكا ، وأخذت كل دولة تنظم جهودها وتضع برامجها الإصلاحية لما بعد الحرب .

* * *

هذه نظرة عاجلة إلى ما يجرى فى العالم اليوم من أحداث بوجه عام ، نعود بعدها لنلقى نظرة خاصة إلى ما يجرى فى بلادنا ، وما شاهدناه فى أيام الحرب ، ومدى تأثرنا بها ، وإن كنا — ولله الحمد — أقل الشعوب تأثرا بها ...

فمن الظواهر الاجتماعية السيئة التى شاهدناها تحكم الجشع فى النفوس تحكما أنساها كل شىء ... أنساها حق الله وحق الوطن ، وأعماها عن كل غاية إلا جمع المال ... فرأينا قوما أثروا ثراء فاحشا ، لم يحلموا فى يوم من الأيام ... امتصوا دماء الشعب ، واختزنوا أقواته ، وفرضوا عليه الأسعار فرضا ، والشعب المسكين يخضع لتحكمهم الجائر تحت وطأة الحاجة ، ومع أن القانون حارب هذا الجشع إلا أنهم عمدوا إلى التحايل على القانون بشتى الطرق والوسائل ، استزادة فى الربح .. الربح الحرام الذى يستنزفونه من دماء الشعب ! ...

ونهجوا فى التحايل على القانون والأوامر العسكرية طرقا كثيرة ، أسوق أمثلة منها : حينما منعت الحكومة نقل الخبز والدقيق من العاصمة إلى الأقاليم رأينا بعض الناس ينقلون الخبز فى نعش ، يشيعونه بالبكاء والعويل إلى الجهة المراد نقله إليها بعيدا عن أعين الرقباء ، وبيعه بأضعاف ثمنه ؟ ...

ولما أصدرت الحكومة أمرها بمنع إصدار الذهب عمد بعض المصدرين إلى تغطية الذهب بطلاء من الفضة وإصداره تحت هذا الستار ، حتى إذا ما تم إصداره أمكن محو الطلاء الفضى ! ...

وحددت الحكومة أسعار الضروريات من مواد المعيشة منعا للتلاعب بها ، فعمد الكثيرون إلى إخفاء الأصناف التى تناولها التحديد الجبرى ، لبيعها للمستهلكين بأضعاف ثمنها ، ولما لم ترفع الحكومة أسعار الزيت وأصدرت أمرها إلى المعاصر بمواصلة العمل ، عمد بعض أصحاب هذه المعاصر إلى فك آلاتها بحجة الترميم والإصلاح ! ! ...

وحددت الحكومة أسعار بعض الحاجيات على أساس " الأقة " فأبى بعض التجار إلا أن تكون وحدتهم " القدح " أو " الرطل " تخلصا من قيود التسعيرة ! ...

ولا يتسع المجال هنا لسرد كل ألوان هذا التحايل الذى لجأ إليه التجار طمعا فى الربح ، وتخلصا من قيود القانون .

ورأينا بعض الصناعات الصغيرة وقد انتعشت سوقها بسبب ظروف الحرب وانعدام المنافسة الأجنبية لها ، والذى نرجوه هو أن تلقى هذه الصناعات الوطنية من عنايتنا وتشجيعنا ما يكفل بقاءها وازدهارها ، فإن فى إحيائها إحياء لمجدنا الصناعى ، وتدعيما لصروح استقلالنا الاقتصادى .

وفتحت الحرب أبواب الكسب أمام عدد كبير من العمال المصريين ، فاستفاد هؤلاء العمال بالأجور الكبيرة التى يتقاضونها ، ولكنهم لم يقتصدوا من هذه الأجور ما يقيهم شرور البطالة ، رغم أنهم ذاقوا مرارة التعطل ولوعة الحرمان . . . فازدحمت بهم دور السينما والملاهى ، وأسرفوا فى الإنفاق إسرافا بعيدا عن الحكمة ، ولم يحسبوا للغد حسابه ! . . .

* * *

وجنت الحرب على كثير من فتيات الأسر الفقيرة ، فغراهن بريق المال وهن المحرومات طول العمر من المال ، ودفع بهن إلى طريق الغواية فاشتغلن عاملات فى البارات ودور اللهو وارتدين أفخر الثياب ، وقد أحصى مكتب حماية الآداب هؤلاء الفتيات بالمئات ، ومن واجبنا أن نفكر فى مصير هذا الجيش الجرار من جنود الفساد الخلقى ، صيانة للأخلاق وحماية للآداب . . .

ورأينا فريقا معدما ربح فى هذه الحرب الأرباح الطائلة ، وغدوا من ذوى الثروات ومما سمعناه فى بعض المجالس أن رجلا ربح ثلاثة آلاف جنيهات من بيع القوارير الفارغة ! ! . . أما الموظف فهو البائس حقا ، إذ عانى مشاق الغلاء ، وجشع التجار والقصابين ، فكانت طائفة الموظفين أكثر الطوائف تأثرا بالحرب ، وكانت الوطأة على كاهلهم ثقيلة ! . . .

ورأينا الصحف وقد قلت صفحاتها وضاقت أعمدتها ، لا تنشر إلا الهام من أنباء الميادين ، والمهم من الأنباء الداخلية ، وقد أظهر البعض ارتياحه إلى هذا الاقتصار الذى دعت إليه ظروف الحرب ! . . .

ومن المظاهر الاجتماعية الطيبة التى شاهدناها هذا الاتجاه الجديد الذى اتجهت إليه سياستنا الإصلاحية ، لتحقيق العدالة الاجتماعية فى المجتمع المصرى ، ورفع مستوى الطبقات الفقيرة ، ومحاربة الجهل والفقر والمرض ، وغير ذلك من المشاريع التى تحقق مطالبنا القومية ، ووجدت فكرة "الوحدة العربية" أنصارا يؤيدونها ويسعون إلى تحقيقها ، وكلها جهود طيبة نرجو أن تكلل بالنجاح ، لتبوأ مصر ، فى العالم الجديد ، المكانة اللائقة بها ، وتبلغ ما تصبو إليه من عزة ، وسؤدد ، ومجد ! . . .

عيسى متولى
بنك مصر